الكارثة القادمة بمصر ، وضرورة تفعيل العمل الإغاثى

بقلم: رائف محمد الويشى

25 يوليو 2012

حدث فى عام 1997 أن ذهبت للسعودية لأداء مراسم الحج ، فى صباح يوم التروية (8 ذي الحجة) وفى حدود الحادية عشر ظهرا غادرت مع أصدقائي مكة بسيارة أجرة متجهين إلى منى ، على مشارفها وجدنا انتشارا كثيفا لقوات الأمن يمنع دخل السيارات ، لم يكن هناك من مفر من مغادرة السيارة والتوجه سيرا على الأقدام إلى منى ..

بعد عدة ساعات من السير في مناطق شبه جبلية وصلنا إلى منى ، كان المشهد مروعا ، عشرات الآلاف من الخيام قد احترقت بفعل خطأ ارتكبته إحدى السيدات أثناء إعدادها الطعام من موقد غاز كان معها .. كانت تجمعات الخيام في وحدات ، وكان هناك فواصل بين تلك الوحدات ، كان هناك كوبري يخترق تلك الوحدات بعرض يصل إلى 100 متر ، لكنه ورغم هذه المساحة الكبيرة الفارغة بين الوحدات عبرت النيران الكوبري وأجهزت على من كان قائما من خيام ، كأنها تحولت إلى عفريت يمشى على الأرض ..

أعلنت يومها الحكومة السعودية أن موتى الحريق قد بلغوا 3500 من الحجيج ، وهو ما يوضح أن الموتى كانوا أكثر من ذلك ، فلم تكن هناك خيمة واحدة قائمة ..
أمضينا ليلتنا في رمال الصحراء ، وفى الصباح (صباح عرفة 9 ذي الحجة) توجهنا بعد طلوع الشمس سيرا إلى وادي عرفة لبدأ مراسم الحج ، بقينا هناك حتى غروب الشمس ثم توجهنا سيرا إلى المزدلفة وبقينا هناك حتى الفجر ، وفى الصباح (أول أيام العيد) ذهبنا إلى الجمرات ومنها إلى الخيام المحترقة في منى ..

كانت المفاجأة تنتظرنا هناك ، لا توجد آثار للحريق ، اختفت تلك الرائحة التي جمعت بين احتراق اللحم البشرى مع أقمشة الخيام ، كما أن جميع الخيام المحترقة قد تم استبدالها بخيام جديدة ، كأن هذا المكان الضخم لم يشهد حريقا منذ يومين ..

وراء ما حدث من إعادة بناء لخيام كانت مخصصة لثلاثة ملايين فرد يقف فريق عمل إغاثى على درجة عالية من الكفاءة ، فما حدث من إغاثة كان عملية معقدة تشمل رفع الأنقاض وتنظيف المكان وبناء خيام جديدة ، وهناك عامل الوقت الذي يضغط على أعصاب جميع هذا الفريق كي ينجز هذا العمل الضخم في أقل من يومين ..

كثيرا ما كنت أسأل نفسي : كم كان يبلغ عدد هذا الفريق الإغاثى ؟
ربما وصل العدد إلى مائة ألف ، وهو بهذا الرقم لا يصلح تسميته بفريق إغاثة بل بفرق إغاثية ، والمؤكد أنه كان معها أسطول من الشاحنات يحتوى على آلاف السيارات ..

ينطبق الشيء ذاته هنا في أمريكا ، تسقط الثلوج بغزارة ويرتفع منسوبها في الشوارع ، فتسد الطرقات لفترة من الزمن تستمر في المتوسط إلى عدة ساعات ، لكن سرعان ما تنتشر مجموعات رفع الثلج لإعادة الشوارع إلى العمل مرة أخرى ..

كنت أجلس أحيانا في المساء المتأخر خلف نافذتي أشاهد تلك المجموعات وهى تعمل ، كنت ألاحظ وجود سيارات دفع

رباعي خاصة يملكها المواطنون وهى تضع كاسحات الثلوج الحديدية في مقدمتها وتعمل ضمن تلك المجموعات ، كنت ألاحظ أيضا أن هناك هدوءا وانضباطا بين تلك المجموعات ، فلا رفع للصوت ولا تشاحن ، بل فقط عمل متواصل واجتهاد في التنفيذ لتحقيق إنجاز قبل أن تطلع الشمس ليبدأ الناس عملهم ..

في السياق ذاته كنت – خلال حياتي في مصر – أرى ما يحدث لشوارعها لو أمطرت السماء لربع ساعة ، فقط لربع ساعة ، لا ليومين متواصلين كما يحدث أحيانا هنا في أمريكا ..

نعرف جميعا من الواقع المر المخزون في ذاكرتنا ما ذا يحدث في تلك الحالة ، المرور يسوده الارتباك ، والشوارع تتحول إلى برك صغيرة ناتجة من تقوس تلك الشوارع في منتصفها لضغط السيارات عليها لسنوات وإهمال المسئولين فى صيانتها..

عليك أن تلقى نظرة على الوضع العام في اليوم التالي على السيارات في القاهرة ، ستجد أن أغلبها قد ارتدى غطاءً من الوسخ والأتربة الجافة ، فالقاهرة هي ضمن أوائل العواصم الأكثر تلوثا في العالم .. لكنه ورغم تلك المكانة الواضحة للقاهرة ، ستجد أنها في وضع أفضل من المدن الصغيرة الأخرى أو القرى ، فالمطر في اليوم السابق قد حول فيها أطنان الأتربة المتواجدة على الطرق إلى كتل من الطين المتحجر ..

ذكرنا حتى الآن أخف مراحل العمل الإغاثة في مصر ، لكن لو انتقلنا إلى المراحل التالية لوجدنا أن مصر غير مؤهلة وبدرجة كارثية لها ، سواء على المستوى الحكومي ، أو على المستوى الشعبي ..

نحن الآن فى مرحلة الانهيار المحدود للعمارات أو المباني السكنية .. إذا عرفنا أن القائمين على مصر في سبعينات وثمانينات القرن الماضي كانوا يستوردون الإسمنت المنتهى الصلاحية (وتحديدا من أسبانيا) ويطرحونه في الأسواق للبيع ، فيمكن أن ندرك لماذا تسقط العمارات الآن فوق رؤوس المواطنين ..

عندما أتابع الأعمال الإغاثية التي تعقب انهيار عمارة ما في مصر أجد أن هناك إستهتارا حكوميا بأرواح المواطنين ، سواء العالقين أحياء تحت الكتل الخرسانية ، أو أولئك الذين قد أصبحوا ضمن الموتى .. فرق الإغاثة تصل بطيئة ، ولا توجد معها معدات ، بل فقط هذا " الونش " الذي لا يفرق بين شخص ما زال على قيد الحياة وآخر قد غادرها ..

هذا على المستوى الحكومي ، أما على المستوى الشعبي ، فالأمر يدعو إلى الحزن ، ستجد أن هناك دائرة من المواطنين حول أنقاض المبنى ، يصرخون لإعطاء تعليمات إلى رجال الإغاثة ، كما تجد أنهم يكبرون " الله أكبر " بصوت - يزيد عن مستوى الهتاف في المظاهرات - كلما خرج أحد الأحياء ..
أين الواجب الحكومي الذي يشرح للمواطنين بأن عليهم الانصراف ، أو على الأقل الصمت التام حتى يتمكن رجال الإغاثة من سماع من هم ما زالوا أحياء تحت الأنقاض ؟!

من المؤسف أن أقول أن إسرائيل ضمن الدول الأكثر تقدما في مجال الإغاثة بوجه عام ، وفى هذا التخصص الإغاثى (أي انهيار المباني) على وجه الخصوص ..
لا توجد دولة في العالم يتعرض أحد مبانيها الضخمة إلى انهيار إلا وتجد إسرائيل في مقدمة الدول التي ترسل بفريق إغاثى لإنقاذ الناس العالقين تحت الأنقاض .. أمر فعلا يدعو إلى الخجل !

لو نظرنا إلى فريق الإغاثة المتخصص لوجدنا أن الأمر يتكون من عشرين أو ثلاثين من المتخصصين ومعه كلابهم المدربة وأجهزة صغير في أيديهم ، تصل دقتها إلى رصد ضربات القلب التي تصدر من الأحياء العالقين تحت الأنقاض ، أي أنها لا تتطلب تكلفة ضخمة ..

كم تجنى إسرائيل عالميا من السمعة الطيبة من خلال دبلوماسية الإغاثة ؟ وكم يساهم فريقها الإغاثى في غسل أدمغة الشعوب التي تتابع تلك الكوارث ؟

أعلم أن لدينا أفضل أنواع الكلاب البوليسية لفض المظاهرات ، أتذكر يوما حين قابلت أحد ضباط الشرطة المصريين هنا فى أمريكا ، عرفت منه يومها أنه جاء في بعثة للتدريب على استخدام الكلاب في فض المظاهرات !

من السهل تكوين فرق إغاثية متخصصة مصرية في رفع المباني التي تنهار على رؤوس ساكنيها ، خاصة أن لدينا العديد من هذه المباني المنتشرة في طول مصر وعرضها ..

لو انتقلنا إلى المرحلة الثالثة ، وهى مرحلة الزلازل لوجدنا أنها أكبر وأعمق بكثير من المرحلة السابقة ، فإذا كان الفشل من نصيبنا في حالة انهيار مبنى هنا أو هناك ، فمن الطبيعي أن تكون " الخيبة " أكثر وضوحا في حالة الانهيار الزلزالي ..

لكن الأمر الذي يدفع للتعجيل بالاهتمام بالإغاثة ورفع مستواها هو التجمعات السكنية العشوائية التي تنتشر بين المدن ، حتى أصبحت السمة التي تغلب على البناء في مصر هو البناء العشوائي ..

هناك مناطق عشوائية تضم عشرات الملايين من البشر يسكنون في مباني لا تضمن لهم السلامة ، وأغلب هذه المباني يستند على الآخر ، كأنهم يشبهون مجموعة من السكارى أو المرضى الذي يستندون على بعضهم البعض ..

كلنا يتذكر أن مصر تعرضت في أكتوبر 1992 لهزة مقدارها 5.2 على مقياس ريختر ، وهو رقم يقول عنه المتخصصون أنه يعتبر معتدلا إذا ما قورن بالأرقام التي تعلوا ذلك ، لكن حالات الهلع التي أصابت الناس نتجت عندما اكتشفوا أن بيوتهم تتراقص من تلك الخفة الغير قوية .. فإذا عرفنا أن كل درجة على مقياس ريختر تزيد عشر مرات عن الدرجة التى تسبقها ، استطعنا أن نقف على ضعف المباني المصرية ، خاصة في تلك المناطق العشوائية ..

ننتقل الآن إلى المرحلة الرابعة والأخيرة في العمل الإغاثى وهى أخطرها ، إنها مرحلة الدمار الشامل حيث يتم تدمير شبه كلى للمدن وما فيها من مرافق ..

التدمير هنا قد يكون بصورة طبيعية كالزلازل العنيفة فوق 6 درجات ، وقد يكون تدميرا بفعل ضربة نووية أو جرثومية أو كيماوية نتعرض المدن لها من قبل العدو ..

الاحتمال الأول يعتبر ضعيفا ، خاصة وأن مصر لا تقع في منطقة الأحزمة المتفجرة التي تنام لعدة سنوات ثم تصحوا لعدة ثوان فتقلب عالي الأرض أسفلها ، ثم تعود لتنام مرة أخرى .. لكن الأمر لا يخلو من ضرورة الاستعداد ، فأحد هذه الأحزمة يتواجد فى الجزائر ، وهى غير بعيدة عن مصر .. كما أن الأمر يتعلق بالملكوت الإلهي ، وقد ينتقل أحد تلك الأحزمة إلى مصر ..
كما أن موجات تسونامى البحرية التي ضربت إندونيسيا في عام 2004 واليابان في عام 2011 وأوقعت مئات الآلاف من القتلى تبدو بعيدة بفعل الموقع الجغرافي الذي عليه مصر ، فمضيق جبل طارق بفتحته الضيقة يقلل ، أو ربما يلغى ، هذا النشاط التدميرى الهائل ..

إذن يتبقى أمامنا الاحتمال الثاني ، وهو تعرض مصر – لا قدر الله – إلى ضربة عسكرية من أسلحة الدمار الشامل التى تملكها إسرائيل ، وهو النووي ، أو الجرثومي ، أو الكيماوي ..

من الثابت أن نقول أن الصراع بيننا وبينهم هو عقائدي وتاريخي وتضرب جذوره في أعماق السنين الطويلة ، فقد دخلنا عدة مرات في صراع مدمر بالأسلحة التقليدية ، وإمكانية تجدد الصراع تبدو قائمة في أي لحظة ، وربما تنتظر تصرفا طائشا

من طرف هنا أو هناك ، وإذا لم يأت هذا العمل الطائش فإن قرآننا وتوراتهم قد أكدتا على أن المنازلة النهائية ستكون بيننا وبينهم للفصل بين الحق والباطل ..

ربما يذكر العارفون أن الإتحاد السوفيتي قد بني في موسكو ملاجئ تحت الأرض بعمق 60 مترا لتسع جميع سكان موسكو لتحميهم من ضربة نووية أمريكية قد تلحق بهم ، وكانت هذه الملاجئ على مدى عقود تحتوى على غذاء – يتم تجديده باستمرار – يكفى دائما لمدة ستة أشهر ، وقد فعلوا الشيء ذاته – أو قريبا منه – في عدة مدن أخرى ، مثل لينين جراد – سان بطرس بورج الآن – وكييف ومينيسك ..

الأمر ذاته فعلته الصين الشعبية ولنفس الغرض ، فقد نقلت – كعادة الصينيين في التقليد والمحاكاة – التجربة السوفيتية ، فقامت بإنشاء صين أخرى في بيجين وشانغهاى وبعض المدن الأخرى ..

أيها القائمون على مصر الجديدة ، أعلم أنه ليس لدينا الإمكانيات للنزول في عمق الأرض ، كما فعل السوفييت والصينيون ، فما فوقها من عشوائيات يزيد عن طاقتكم للتعامل معه ، لكن ألا يستحق الأمر منكم أن تعملوا على إنشاء فريق إغاثى محترم ، مع وجود إحتياطى كافي من الخيام !

رائف محمد الويشى
سانت لويس – ميزورى - أمريكا
elwisheer@yahoo.com
تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :
www.thowarmisr.com